تأثير العقل في الداء

الاعتقاد بتأثير العقل في الداء قديم جداً وكثيراً ما كان الاطباء الاقدمون يعتمدون عليهِ في مداواة مرضاهم . وقد انتقد افلاطون النيلسوف اكبر اطباء عصرهِ لانهم كانوا يعتنون بالجسم ويهملون تأثير العقل فيهِ . وفي اساطير اليونان ادلة كثيرة على انهم عرفوا هذه الحقيقة وعملوا على الاستفادة منها وكانوا يداوون المرضى في هيكل ايبداريوس المشهور على هذه الطريقة . وقد كان موقع هذا الهيكل في مكان يطل على مناظر طبيعية بديعة وخصص قسم منهُ للرياضة البدنية كالقفز والجري وقذف الاثقال وفيهِ مرتع كبير لتمثيل الروايات وغرف لسكنى المرضى بعضها للذكور ويتعهد دواوُدا كغرف للصحات التي تقام في هذا العصر

والمصريون ايضاً كانوا يعتقدون بذلك فكانت لهم حدائق ومتنزهات خاصة بالمرضى . وكثيراً ما كانوا يعهدون للمريض بركوب النيل والتنزه فيهِ واستنشاق هوائهِ المنعش

ومنذ خمسة عشر قرناً اشار كنن الطبيب الذي ذاعت شهرتهُ في ذلك الحين الى ما بثقة المريض بطبيبهِ من التأثير في شفائهِ . ويروى عن طبيب من اطباء القرن الثامن انهُ دعي لمعالجة امرأة لتوهم انها ابتلعت صلاً فتيادا واوهمها انهُ تقيأ صلاً كان قد احضرهُ لهذه الغاية فشفيت . وكان اطباء العرب يعرفون ذلك ويعملون على تسلية مرضاهم واقناعهم انهم مجاثون الى الشفاء ولو لم يكن لهم اصل بالحياة . وقال مونتفيل في القرن الثالث عشر ان ثقة المريض بطبيبهِ تفعل اكثر من الادوية . ويحكى عن الطبيب سيدنهام انهُ قضى مدة طويلة يعالج غنياً مصاباً بسوء الهضم اوهمهُ على غير جدوى فعمد الى استعمال الحيلة فاشار عليهِ ان يمشي الى نبع بعيد ويشرب منهُ ويستحم فيهِ ففعل باشارتهِ ولكنهُ لم يقف على اثر للنبع فعاد حانقاً ولكن ظهر التحسن في هضمهِ فبين لهُ الطبيب ان المشي في الهواء الطلق ينفعهُ

واطباء القرون الوسطى كانوا يعتقدون بذلك ايضاً فقد قال احدهم ان الظن والثقة قد يزيدان المرض او يخففانهِ وقال فون هلمنت ان القوى السحرية كامنة في الانسان لتغلب المشبهات للظهور

واذا وجّه الانسان افكارهُ الى قلبهِ فقد يوقفهُ عن عملهِ فان القلب يضرب بترتيب وانتظام حينما لا تكون افكار صاحبهِ موجهة اليهِ فاذا وجهها اليهِ ازداد خفقاناً وتشوشاً

ولا يتنصر هذا التأثير على القلب فقط بل قد يتناول كل عمل يقوم بهِ الجسم . فقد يجلس الانسان الى الطعام بشهوة شديدة فيتناول ما لا يروقهُ طعمهُ فتذهب شهوتهُ ويسوء هضمهُ . ويحدث لهُ مثل ذلك ايضاً اذا تلقى عند فراغهِ من الاكل خبراً يسوؤهُ

حكى لي صديق كان في البرازيل انهُ دعي مرة لتناول طعام العشاء عند احد اصدقائهِ من البرازيليين فكان في جملة ما قدم لهُ اللحم فاستطابهُ كثيراً . وبعد ان فرغوا من الاكل اخبرهُ صديقهُ ان اللحم الذي اكلهُ لحم سمدان فاضطربت معدتهُ للحال ولقياً ما اكلهُ . ويحكى عن سائح انكليزي انهُ دخل مطعماً في بلاد الصين فقدم لهُ لحم استطابهُ كثيراً فسأل الخادم عن نوعهِ فاخبرهُ انهُ لحم كلب فتغيرت حالهُ وساء هضمهُ

وكثير من الادوية التي كان لها شأن كبير في تاريخ الطب لم يكن تأثيرها الاَّ وهميًّا في عقول المرضى . من ذلك ان طبيباً يقال لهُ اليشار بركنس رأى ان يجرب الكهربائية في مداواة الروماتزم فشاع انهُ اكتشف دواءً جديداً ولقاطر المرضى عليهِ فكانوا يشفون من امراض كثيرة عرف الآن ان لا تأثير للكهربائية فيها . ومنهُ ايضاً ان طبيباً انكليزيًّا يقال لهُ مون اشاع انهُ اكتشف دواء يشفي ادواء كثيرة اذا استعمل مع الفرك فاقبل المرضى على التداوي بهِ ايما اقبال وكانوا يشفون من امراضهم بعض الاحيان ثم عرف ان دواءهُ مستحضر من زلال البيض فغير الناس اعتقادهم فيهِ

ويروى ان رجلاً ارلنديًّا ادَّعى ان الله اوحى اليهِ في حلم ان يشفي المرضى باللمس فما ذاع حلمهُ في الناس اقبل المرضى عليهِ تلفى كثيرين منهم . ومثل ذلك يقال في القديس الشوينات الذي اشتهر امرهُ في سورية وشفى بعض المرضى . وقد استشار مريض استاذاً فرنسويًّا في التداوي بدواء جديد صنع بهِ فاشار عليهِ باستعمالهِ قبل ان يعرف تركيبهُ وينقد فعلهُ . وكبار الاطباء يهتمون لمعرفة حالة المريض النفسية كما يهتمون لمعرفة مرضهِ

وكم من رجل يموت بغير سبب ظاهر اثر سماعهِ بخبر يحزنهُ وما سبب ذلك الاَّ تأثير العقل في اعمال الجسم فقد يقف قلب الانسان او ينجمد احد اوعيتهِ الدموية عند اشتداد الحزن بهِ فيموت فجأةً

قرأت عن امرأة ماتت فجأةً لان عربة اعترضت الطريق وكادت تصدمها وسبب موتها

انها افتكرت ان الغربة قاتلتها لا محالة فوقف قلبها . وتسمت بسيدة بارعة الجمال اصابها من شوّه وجهها فلزمت بيتها وانقطعت عن زيارة صديقاتها واخذت تضعف وتتحمل مع ذلك تعب بمرض وما ذلك الاّ لشدة غمها

ومما يروى عن النحات المشهور بنفنتو سيلني انهُ توقف عن اكمال تمثال كان يشتغل بصنعهِ حتى الزمتهُ الفراش . فبينما كان ذات يوم اذا باحد الصناع الذين كانوا يعاونونهُ دخل عليهِ واخبرهُ ان ناراً شبت في البيت الذي فيهِ التمثال فنهض من فراشهِ واسرع الى التمثال فانقذهُ من النار وعاد الى بيتهِ معافىً . ويقرب من ذلك ما يحكى عن احد القواد المشهورين انهُ كان في حالة النزع وبلغهُ ان العدو هاجم جيشهُ فنهض الى جوادهِ وامتطاهُ وقاد جنودهُ ضد العدو وهزمهُ ولكنهُ مات بعد انتهاء المعركة

ومثل ذلك ما حدث لامبراطور البرازيل دن بدرو فانهُ مرض مرضاً شديداً فغادر بلادهُ الى اوربا مستشفياً . وحال وصولهِ الى اوربا وصلهُ نبأ من ابنتهِ انها تمكنت من اقناع الشعب والحكومة بالغاء الاتجار بالرقيق وتحرير الارقاء فشفي من مرضهِ تماماً لان هذه المسألة كانت شغلهُ الشاغل

وقد يكون الانسان ضعيفاً مضنوكاً لا يقوى على المشي بسبب المرض فيبلغهُ ان خطراً محدق بهِ او باحد اهلهِ او اصدقائهِ فينفض الضعف ويأتي من الاعمال ما يعجز عنهُ عادة ولو كان متمتعاً بالصحة فمن اين تأتيهِ القوة في مثل هذه الاحوال وجسمهُ لم يكتسب شيئاً خارجياً يزيدهُ قوة او يعيد عافيتهُ ؟ لا شك في ان ذلك نتيجة تأثير عقلهِ في جسمهِ . واذا احدق الخطر بالانسان نسي ضعفهُ بل نسي نفسهُ جملة وانصرفت كل قواهُ الى التخلص من ذلك الخطر او التغلب عليهِ

قال الدكتور وليم اوسلر ما ملخصهُ « لا ينكر ما للدواء من التأثير في شفاء الداء ولكن ثقة المريض بطبيبهِ تنعش قواهُ وتجري الدم في عروقهِ وتنشط اعصابهُ . وملعقة ماء يعطيها الطبيب لمريضهِ واثق بهِ قد تفعل العجائب » وقال السر جيمس ميمسون « ان الطبيب الذي لا يلتفت الى تأثير العقل في الجسم يخل بركن من اركان الطب الراقي »

نجيب مطر نصار